أوراق إستراتيجية

The Washington Institute for Near East Policy.
March, 2006
The Iranian Moment
By Frederic Tellier
February, 2006

اللحظة الإيرانيّة

ملخّص تنفيذي

إنّ إنتخاب محمود أحمدي نجاد كرئيس لإيران خيّبت الآمال بالدمقرطة التي كان الغرب قد وضعها في إيران. ومع أنّ إنتخاب 2005 يتعارض بجدّة مع التوجّه الإصلاحي لرئاسة خاتمي، فإنّه مثّل الخطوة النهائيّة في التحوّل المتصاعد في السياسة الإيرانيّة السائدة. وأثناء الإنتخابات التشريعيّة سنة 2004، لم تكن مناورة المتزلفين والتابعين للنظام الإسلامي، ببساطة، هي التي هزمت الإصلاحيين، لقد خسروا لسببين مستقلّين مع أنّهما مترابطين: لأنّ الشعب شعر أنّهم كانوا مخلصين جداً للنظام الإسلامي، ولأنّ مؤسسي النظام شعروا بأنّهم لم يكونوا مخلصين كفاية. وأكثر من ذلك، فإنّ فشل الإصلاحيين يكمن في عدم قدرتهم على ممارسة سياسيّة فاعلة وصلبة مبنيّة على التسويات، التحالفات، المكاسب المحليّة وتطوير الشبكات المؤثّرة. إنّ الولع بالخطابات المتكلفة والمُبالغ بها وسياسة حرق الجسور المتهوّرة لجهة مشاركة " جبهة المشاركة " أدّت بهم جميعاً وبسهولة كبيرة الى السجون الإيرانيّة، وبالنتيجة إنسحب الشعب الإيراني من المشاركة السياسيّة حيث شعر أنّها كانت تهدف فقط الى الحفاظ على الكينونات نفسها في مكانها من دون تبديل في الهيكليات الأساسيّة وفي معتقدات الجمهوريّة الإسلاميّة.

وبإستخدام القوميّة الإيرانيّة كأداة سياسيّة، فإنّ المحافظين يتبعون، في الواقع، خطوات الإصلاحيين. وقد كان الرئيس خاتمي هو من عبّد الطريق بهذا الخصوص. وبسبب إدراكه أنّ قدرة الإسلام الثوري على تحريك الجماهير قد أُصيبَت بالوهن، حاول خاتمي بناء إجماع عن طريق إصلاح وتأهيل الثورة كمركب أساسي للإرث الوطني، وبالطبع، لقد تجاوزت هيبة الدولة والتأثير الدولي الإنقسامات السياسيّة. وإنّ المجلس السياسي المحافظ الذي بإمكانه إثبات نفسه بهذا الحقل لن يكون أقل تمثيلاً وشرعيّة من الإصلاحي. إنّ هذا الربط الرديء والعنيف قاد بعض نفس الأفراد المعادين صراحة للنظام الإسلامي الى إظهار التضامن مع أولويات معيّنة للنظام، مثل برنامج الطاقة النوويّة الإيرانيّة وتطبيقه العسكري المحتمل الذي إكتسب دعماً إمتد بعيداً وتجاوز دوائر رجال الدين.

إنّ الثورة بدأت تتحوّل لتصبح علمانيّة. وقد لاحظ حرس الثورة هذا التوجّه وهم يتكيفون مع كلامهم وفقاً لذلك التوجّه، أنّهم يتخلّون عن الحقل الإيديولوجي الذي تحطّمت عنده الروابط بين النظام والمجتمع بشكل لا يمكن ترميمه، أمّا بالنسبة لحقل القوميّة والتطوّر، فإنّ الإجماع لا يزال سائداً.

وتستند الثورة الإسلاميّة، في نظر المحافظين، الى ثلاثة دعائم: الإيديولوجيّة، الإستقلال الوطني، والتطوّر التكنولوجي. وعلى الرغم أنّ أولى هذه الدعائم بدأت تنهار، فإنّ الدعامتين الأخريين لا زالتا قادرتين على الحفاظ على إستقرار النظام.

إنّ مكتب رئيس بلديّة طهران الذي إستلمه محمود أحمدي نجاد نفسه في العام 2003، هو حالة تجدر الإشارة إليها. حيث أنّ أحمدي نجاد، وعلى خلاف سابقيه، أثبت قدرة على معالجة مسائل عدّة في بضعة أشهر كان قد أُكرِهَ عليها بحسب أوضاع إداريّة وسياسيّ' معقّدة، كإخلاء ثكنات عسكريّة لشق طرقات جديدة في مدينة تكتظ بعجقات السير. إنّ تحسينات سريعة كهذه كانت، وبالحق السياسي لرئيس البلديّة، ستعم وتنتشر- بمساعدة الحرس الثوري- متجاوزةً التقصير المثير للغضب للإدارة الإيرانيّة.

ولذلك، فقد أظهرَت إدارة طهران المحافظة للشعب أنّ بإمكانها قيادة أجهزة الدولة وكذلك تقديم حكومة متجانسة وفعالة لإيران.

إنّ التوتّر الكامن بدأ يتطوّر الآن بين المحافظين الميالين لتسهيل التحوّل نحو الإقتصاد الحر- " المحافظين الإنتقاليين " أو الراغماتيين- وبين أولئك الذين يمكن أن ندعوهم " بمحافظين المدرسة القديمة " الذين يدافعون عن مصالحهم بإستخدام لغز النظام الإسلامي. ولم تعد الحياة السياسيّة الإيرانيّة موجهة بالشق بين الإصلاحيين والمحافظين بعد الآن، وإنّما موجّهة بخط محدد جديد يقع في قلب المعسكر المحافظ نفسه. إنّ " المحافظين الإيرانيين الجدد "، كما لقّبتهم الصحافة بسخرية، لم يخفوا سر إعجابهم بالنموذج الصيني الذي يدمج النمو الإقتصادي المبني على قاعدة الإنفتاح على الإستثمار الأجنبي والتحرر الإجتماعي والثقافي من جهة، مع القيود السياسيّة من جهة أخرى.

إنّ أميركا هي هاجس المحافظين، وقد عارضوا بطريقة ما إدانة " الشيطان الأكبر "، وهي الصفة التي إتسمت بها الثورة في سنواتها الأولى. وفي الواقع، فإنّ سمة الثورة المعادية لأميركا كان قد تسبب بها " اليسار الإسلامي "، وهي نفس المجموعة التي إرتدت العباءة " الإصلاحيّة " في العام 1997. فقد عبّرت النواة لليسار الإسلامي والمحبطة بخاتمي عن إنتقادها للرأسماليّة وكانت معارضة إيديولوجياً لأميركا ولم تقم بأي إنقلاب، مهما كان نوعه، نحو واشنطن. وبالعكس، يريد المحافظون المنفتحون عقلياً تقديم أنفسهم كنخبة معتدلة ومتنوّرة ثقافياً وقادرة على العمل كمحاور منطقي للغرب وخاصّة لأميركا.

إنّ النظام الإسلامي مدرك للخطر والغموض المتّصلين بإستراتجيّته الجديدة، حيث أنّه لا يضع كل بيضة في سلّة تحوُّل المبادئ المحافظة، بأي حال من الأحوال. إذ أنّ الحرس الثوري هم المعقل الأخير للنظام الإسلامي في أوقات الأزمات. إنّ عمليّة تحديث الفاشستيّة التي يتم عرضها الآن للشعب الإيراني، لا تستثني شكلاً هو أكثر الأشكال تقليديّة للفاشستيّة والذي يريد أن يرى النظام الإسلامي ينشر أسلحته القمعيّة المؤثّرة وذلك لصنع مجتمع ملتزم إلتزاماً شديداً. وعلى كل، إنّ هذه الفرضيّة الجدليّة ما هي إلاّ أسوأ سيناريو.

ويقدّم الحرس الثوري الآن نوعاً من المصفاة الإيديولوجيّة للتجنيد، الإختيار ولعمليّة التكيّف الإجتماعي للقادة المستقبليين المحافظين في الجمهوريّة الإسلاميّة- وهي طريقة لإختيار زملائهم وإدخالهم (بسريّة) الى النظام المالي الإيراني الغامض.

وبالنتيجة، وعلى الرغم أنّ القائد الأعلى يعتبر، في كل لحظة، أنّ الحرس الثوري هو الضمانة الأوثق لسلطته، فإنّ العلاقة بين الإثنين يحتوي على مقدار لا بأس به من فقدان الثقة المتبادلة. إذ يواصل الحرس إستراتيجيته لكي يصبح قوّة مستقلّة، الأمر الذي يحتمل أن يسبب القلق حتّى للقائد الأعلى نفسه. وتتألف هذه الإستراتيجيّة من عناصر ثلاثة متّصلة ببعضها بشكل وثيق. العنصر الأوّل، ويستند الى الإستقلاليّة الماليّة المستمدّة من سيادتهم على الإقتصاد السري وشبكات التهريب. العنصر الثاني، والذي يتلازم مع الأوّل، وهو درجة الإستقلال الروحي للحرس، حيث أنّ القائد الأعلى ليس ملاذهم الديني الشرعي الوحيد، إذ أنّ الحرس مرتبطون بمبدأ " ولاية الفقيه " (وهو المبدأ الذي يقدّم الدين على السياسة) أكثر من شخص القائد الأعلى. وإنّ الحرس الثوري هم بطريقهم لإستكمال عمليّة غير متوقعة لعسكرة المجتمع المدني الإيراني ونشوء مجلس سياسي عسكري، وهو إحتمال بارز.

وبينما تكافح طهران لأجل التطبيع التجاري والديبلوماسي، فإنّه من غير الواضح عمّا إذا كان النظام يدرك كم أنّ طريقة إدارتها الدوليّة تعرّض جهودها للشبهو والخطر. لقد بدأنا نشاهد عدم توازن ملحوظ بهذا الخصوص. ومن وجهة النظر الإيرانيّة، فإنّ الدعامتين الباقيتين للإستقلال الوطني والتطوّر الإقتصادي تكملان بعضهما البعض بطريقة طبيعيّة. ولكن مع الإستمرار بوضع برنامجها النووي الطموح- مع إمكانيّة التركيبة العسكريّة- في قلب إستراتيجيتها المستقلّة، فإنّ إيران تقوّض رغبتها بالعلاقات التجاريّة مع الغرب، كما أنّها تقف في مواجهة العالم في اللحظة التي تعتبر أنّ التطبيع التجاري مسالة حاسمة لإزدهار النظام الإيراني. إنّ مستقبل قوّة الجمهوريّة الإسلاميّة سينتهي على المسرح الدولي- إبتداءً بالإستراتيجيّة التي ستتبنّاها واشنطن. وسوف يظهر تحوّل طهران بسبب ذلك، ويعلم كل إيراني أنّ هذا الأمر حتمي.

<u>تعقيدات إنتخاب أحمدي نجاد.</u>

وبعد إنتخاب خاتمي المنتصر في عام 1997، كان التصويت في إنتخاب عام 2005 هو الأكثر حسماً في تاريخ الجمهوريّة الإسلاميّة. لقد كان حدثاً شكّل حداً فاصلاً. عندما بدأت الحملة، لقد إستحوذ الإنتخاب على عقول الناس أكثر مما كان متوقّعاً. وعلى الرغم أنّ أحمدي نجاد أنهى في دورته الأولى دورته الثالثة وحتّى الرابعة، فإنّ مشاركته في الدوذة الثانية وفوزه النهائي يعود الفضل فيه بشكل كبير الى مراقبي النظام (مجلس صيانة الدستور) والى المراسلين

العسكريين وشبه العسكريين في أجهزة الدولة (الحرس الثوري و Baseej أو الميليشيات المتطوّعة). وقد يكون من الخطأ المميت إعتبار الإنتخاب وكأنّه، ببساطة، مؤامرة. لقد عبّر المجتمع الإيراني عن نفسه بصراحة تامّة وبعث برسالة واضحة الى النظام. ونحن الآن نشهد تنافساً بين قطبين: من القوى المحافظة المتحلّقة حول القائد الأعلى، وهي العمود الفقري الذي يتألّف من شبكات الحرس الثوري القويّة من جهة، ومن جهة ثانية بين البراغماتيين الذين يتألّفون من الإصلاحيين والتكنوقراطيين الناقمين الذين يرون الحاجة للإصلاحات الإقتصاديّة والذين تحلّقوا حول رفسنجاني القوي.

وعلى مدى الثماني سنوات الماضية، تراجع الإصلاحيون الى الوراء، الى المجتمع الثقف والمطمئن من الطلاب، المفكرين والفنانين الذين كانوا حلفاء خاتمي الرئيسيين. إلاّ أنّه وخلال كل تلك السنوات، قام المجتمع المدني بعزل " المجتمع الحقيقي "، وهذا يعني عزل أكثريّة الشعب الإيراني، الذين عانوا أكثر من غيرهم من الأزمات الإقتصاديّة، والذين كان يتم تجاهلهم بشكل مستمر من قِبَل أولئك الذين في السلطة.

لقد أسّس أحمدي نجاد رهانه السياسي على الملاحظة بأنّ الظلم الإجتماعي كان مثابراً بعزم وحتّى متزايداً. وبشجب الظلم الذي هو الآن أكبر مما كان عليه في عهد الشاه، وبالإضاءة على مخاطر التدخل الأجنبي بواسطة فتح الإقتصاد الإيراني، وهو ما يرغب معارضوه القيام به، إستغل رئيس بلديّة طهران سلسلة النوستالجيا (الحنين الى الماضي)، الإحباطات والمخاوف، والتي لا تزال تحرّك المواطنين الإيرانيين العاديين.

ويصف أحمدي نجاد إنتصاره بأنّه " الثورة الإسلاميّة الثانية ".وبالنسبة للحرس الثوري، فإنّ الناس الذين يتم تجاهلهم من قِبَل الشاه في السابق هم نفس الناس الذين يئنّون تحت وطأة أقدام الملاليين. وبالحقيقة، فإنّ شبكة الحرس الثوري أسست إنتصارها على تشويه سمعة الملاليين، وعلى إدانة فساد رجال الدين الذين في السلطة. وقد نكون مخطئين الى حد بعيد حول طبيعة فوز الرئيس الجديد وتعقيدات ذلك الفوز إذا ما أهملنا هذه النقطة الخطرة.

لقد شكّل فوز أحمدي نجاد، أكثر من أي شيء آخر، هزيمة للملاليين. أمّا ما هو تأثير هذا الإنتخاب على التواصل الدولي؟ فمن جهة، ليس أحمدي نجاد الشخص الأكفأ لتمثيل مصالح إيران في الخارج. لقد سافر ثلاث مرّات فقط في حياته الى خارج إيران. ومن جهة أخرى، من سيكون أفضل من أحمدي نجاد فيحوّل الأزمة النوويّة الى نزاع بين الشمال والجنوب حول الحق بمواصلة التكنولوجيا النوويّة؟

ومع الخلفيّة الإيديولوجيّة، التي تمّ تقديمها، فإنّ أحمدي نجاد يناسب هذا الدور- يمكنه أن يلعب دور " مصدَق " الطاقة النوويّة، كوسيلة جذب للقوميّة الإيرانيّة.

إنّ الإستراتيجيّة الإيرانيّة الصامدة بخصوص التطوّر النووي أثبتت فعاليتها الى حد بعيد. أوّلاً، إنّ إيران تمتحن تصميم الغرب. ثانياً، تدعي الإنسحاب بينما هي في الحقيقة تنتظر فرصتها الملائمة. وأخيراً، عندما تصبح المفاوضات صعبة، يقوم الديبلوماسيون الغربيون بالإستسلام لرغبات إيران. وبذلك، فإنّ إيران تعطي الإنطباع بأنّها تتراجع على الرغم من أنّها، في الواقع، تحصل على هدفها. ومن المحتمل أنّ أحمدي نجاد سوف يستمر بهذه الإستراتيجيّة.